

الأجواء ملتهبة في الشرق الأوسط



أعرف المبعوث الأممي إلى ليبيا، أعرف غسان سلامة. أعرف عنه، ومنه، ما يجعلني أولى خطابه الأخير في مجلس الأمن ما يستحق من اهتمام لم أول مثله لخطب مبعوثين سبقوه إلى هذه المهمة.

ألقى غسان خطابه وهو غاضب أشد الغضب. خشيت أن يخرج عن القراءة فيعلن بعض ما يكتم ويترك لهم القاعة والمهمة بأسرها ويخرج من ليبيا ولا يعود. لم يفعل. لم يفعل لأنه كان يعلم علم اليقين أن تخليه عن المهمة المكلف بها وحتى مع إعلان غضبه لن يفيد ولربما أضاف عقدة جديدة إلى قضية شديدة التعقيد.

لعله أراد في كلماته، وقد صيغت في الخطاب منزوعة الانفعال، أن يقول في نيويورك لأعضاء المجلس المسؤول عن أمن العالم، لقد خدعتموني حين وعدتم بدعمي، نواياكم لم تكن صادقة، وإرادة الفعل لم توفرها، سبقتكم إلى موائد المفاوضات أطماعكم في ليبيا واشتغل بعضكم مثل غيركم ببيع السلاح وتنظيم الميليشيات وشراء الذمم وإفساد العقول.

سمعت غسان. كان يتكلم عن ليبيا. رحلت أتخيل مجلس الأمن وقد قرر دعوة جميع مبعوثيه في مختلف أقاليم العرب ليتكلموا ويتكلم مراقبون ومتخصصون آخرون بعد أن يتكلم المبعوث إلى ليبيا، وتساءلت هل سيكون الاختلاف كبيرا بين ما يقوله كل هؤلاء إن صدقوا وما قاله المبعوث الأممي إلى ليبيا.

اجتمعت ثلاث قمم في المملكة العربية السعودية واعتقد أنها حققت الهدف الذي عقدت من أجله. ففي أعقاب قصف مواقع حساسة في قلب المملكة وتخريب سفن راسية قرب موانئ إماراتية كان لازماً للمصلحة الأمنية لدول الخليج وللمملكة السعودية ودولة الإمارات بصفة خاصة حشد أكبر تأييد ممكن للدول محل التهديد والعدوان وصياغة أكبر إدانة ممكنة للدولة الإيرانية التي هي مصدر التهديد كما يتصوره ويؤكد أصحاب الدعوة لعقد هذه المؤتمرات.

صور هذه المؤتمرات والتغطية الإعلامية لها وعدد من وافق على المشاركة ومستوى الحضور وخطب المسؤولين والبيانات النهائية، كلها أكدت استجابة الدول الصديقة والشقيقة إلى دعوة الالتفاف والتأييد، ولا أكثر.

أضفت "لا أكثر" لأعنى أن المؤتمرات الثلاثة لم تنعقد إلا من أجل هذا الهدف الكبير في قيمته ولكن المحدود في حيزه ومضمونه. لم يطلب من أحد تحريك قوات أو غلق حدود أو قطع علاقات أو التضحية بمصلحة كبيرة أو صغيرة من أجل تحقيق هكذا هدف محدود.

لا شك عندي في أن أصحاب قرار الدعوة إلى عقد هذه المؤتمرات الثلاثة اختاروا الهدف الهادئ لأنهم أدركوا ما أدركه المبعوث الأممي إلى ليبيا وغيره من المبعوثين ومراقبين ودبلوماسيين، أن الأجواء في الشرق الأوسط غير مناسبة لانعقاد مؤتمرات بأهداف ثقيلة أو خطيرة.

لسنا في حاجة لخبراء لاطلاعنا على حقيقة الأجواء في الإقليم. أمامنا الحقيقة واضحة لمن يريد أن يراها، أما أنا فأراها في أربع صور على الأقل هي:

أولاً: صورة الغالبية العظمى من الدول المدعوة من الإقليم أو من خارجه وهي تمر بضائقة أو أخرى. بعضها متخن بجروح عميقة خلفتها الحرب مع الإرهاب وبعضها عصرته العولمة وانكسارات النظام الرأسمالي العالمي في أونتته الأخيرة.

بعضها فاقد الهوية، أو مثقل بحمل هويات متنافسة لا تقوى مؤسسات الحكم فيها والمجتمع المدني على الفصل بينها أو على فرض التسامح على علاقاتها ببعضها البعض.

مثل هذه الدول منهكة بعد بحث مستفيض عن حلول عاجلة جدا لمشكلات وأزمات لا تنتظر. منها أيضا ما أصبح فريسة سباق العمالة نحو مناصب قيادة العالم، منها باكستان وأفغانستان وجيبوتي على سبيل المثال. هذه دول لا تحتمل التزامات جديدة.

ثانيا: صورة إقليم يلفه الاحتقان. تعبنا من محاولات الفهم والتبرير. أنشب الربيع أظافره الناعمة فاقتلعت لتعود فيما يبدو أقوى وأصلب عودة. ليس من المبالغة المفرطة القول بأن مظاهر الاحتجاج تعددت ومظاهر الرفض تعمقت، ومنها الرفض العام في الإقليم للاختراق الإسرائيلي المستفيد من تدهور العلاقات في منطقة الخليج.

هكذا جاءت صفقة القرن متسللة تحت دخان الاحتقان فأضافت شكوكا وعمقت كراهيات، وما أقساه الكره المنغمس في اليأس.

هكذا تأتي أيضا طفرة الغاز شرق البحر المتوسط، تأتي محمولة على عدد عظيم من الشكوك المتبادلة ومحفوفة بأساطيل تتواجه استعدادا للاستيلاء على حقل هنا أو السيطرة على خط أنابيب هناك.

ثالثا: صورة أمم شتى تتشارك العيش في هذا الإقليم منذ فجر التاريخ تعيش اليوم حالة الخوف من "تفلاتات". واحدة من هذه "التفلاتات" تكفي لتشعل النار في كل أنحاء الإقليم.

الناس في مجالس أنسهم وداخل بيوتهم وفي مواقع عملهم وفي الشوارع وبعيدا عن الميادين يتحدثون بالهمس أو بالصراخ أحيانا عن "تفليته" تقع في مياه الخليج تصاب فيها بالضرر بارجة أو حاملة طائرات أمريكية فتنتفح على كل مصاربعها أبواب جهنم.

أو عن "تفليته" أخرى في جنوب لبنان تتعمدها إسرائيل ولا يتغاضى عنها حزب الله كتغاضيه والقوات الإيرانية عن أعمال هجومية متعمدة من إسرائيل في ضواحي دمشق.

الناس في السودان والجزائر يتوقعون بالقلق البالغ وقوع "تفليته" بريئة أو شريرة في نواح قريبة من مقر القيادة المسلحة بوسط الخرطوم أو في ميدان بالعاصمة الجزائرية تطل عليه هيئة البريد.

هل يعقل أن يقبل الناس العيش طويلا في مثل هذا الاحتقان المتجدد منذ سنوات عديدة وفي ظل توقع "تفليجات" بين لحظة وأخرى، واحدة منها تكفى ليشتعل الشرق الأوسط حربا هائلة لسنوات عديدة قادمة، يخرج منها "شيء" آخر أو مسخ مبتكر في شكل نظام إقليمي جديد.

رابعا: صورة يصعب رسمها على الورق أو نقلها إلكترونيا بهدوء وبدون مبالغة، صورة إقليم يقف على أبوابه من يزعمون امتلاك حسن النية وكلهم في الحقيقة أشرار. أرى هناك دونالد ترامب وجون بولتون ومايك بنس ومايك بومبيو وستيف بانون وقد سبقتهم مواقف ورؤى ومعتقدات حذرتني مبكرا من نواياهم.

كبيرهم يتعمد السخرية من بعض حكام العرب أمام ناخبيه، يعنى يستخدمنا بشكل يؤذى العلاقة في المستقبل بين الشعب الأمريكى والعرب. فعلها مرارا ويصر عليها. لا أعتقد، من موقعي كمراقب، أننى أستطيع أن أثق بنواياه تجاه مصالح العرب حكاما وشعوبا حتى إذا التزم وأقسم.

أزداد اقتناعا حين أرى في ركابه جون بولتون الذى من تاريخه ووثائق حياته وأقواله أستطيع أن أحكم بأن كره هذا الرجل للعرب يزيد أضعافا مضاعفة عن كره أعتى الكارهين للعرب من اليهود الصهاينة في دائرة صنع القرار الأمريكى وبخاصة بعد أن انضم إليهم فريق جديد من الممولين والمقاولين الصهاينة.

يكرهنا جون بولتون ويتمنى لو أتاحت له الفرصة مرة ثانية ليعلن حربا في المنطقة ضد شعب آخر غير الشعب العراقى. كان وأعوانه السبب في معلومة زائفة أودت بالعراق وأودت معها بأحلام شعوب أخرى إلى الدمار. وهو يحاول الآن فالإقليم جاهز للتدمير.

أتمنى أن تكون القمم الثلاث حققت الهدف الذى اجتمعت من أجله، وأتمنى أن تعقد مرات عديدة، يتخصص كل انعقاد لقضية من تلك القضايا التى تصنع هذا الاحتقان في أجواء الشرق الأوسط.

نعرف أن جميع قضايا الشرق الأوسط نافذة على بعضها البعض. تظن أن واحدة منها تنفرد بدولة فإذا بها جذر أصيل لقضية في دولة أخرى أو فرع من فروعها.

لا تأملوا خيرا في الدول الكبرى ومؤسساتها الدولية فهى في أحسن الأحوال قادرة على إحباط الجهود الخيرة، وغسان سلامة آخر الشهود على سوء ما فعلت وتفعل.